مع القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

المتوفى عام ٧٧٤ هـ

الكتاب الخامس

عرض وتلخيص

محمد لبيب البوهي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٩٥٤

طبع دار الطباعة المصرية الحديثة

شارع محمد علي درب العنبة نمرة ١ مصر

مع القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

المتوفى عام ٧٧٤ هـ

الكتاب الخامس

عرض وتلخيص

محمد لبيب البوهي

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

الطبعة الأولى

١٩٥٤

طبع دار الطباعة المصرية الحديثة
شارع محمد علي دوب العنبة نمرة ١ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبرهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس عموما لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده (للذى ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذى يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى : (مباركا) أى وضع مباركا (وهدى للعالمين)

وعن أبى ذر أنه قال :

قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال « المسجد الأقصى »

* * *

وعن على رضى الله عنه فى قوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) قال كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . وزعم السدى ، أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا .

وكلمة بكة من أسماء مكة على المشهور وقيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها .

وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أى يزدحمون .

وقوله تعالى : (فيه آيات بينات) أى دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرفه ثم قال تعالى (مقام إبراهيم) يعنى الذى لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده اسماعيل .

وقد كان المقام المذكور ملتصقا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد تقدمت الأحاديث فى ذلك .

* * *

وعن ابن عباس فى قوله تعالى (مقام إبراهيم) قال : الحرم كله مقام إبراهيم .

وقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا) يعنى حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية ، كما قال الحسن البصرى وغيره ، كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صوفه ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج

وقال ابن عباس فى تفسير ذلك :

من عاذ بالبيت أعاذه الله ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه

* * *

وقال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وقال (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وحتى إنه من جملة تحريمها حرية اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها كما ثبتت الاحاديث والآثار فى ذلك .

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » وقال أيضا يوم الفتح « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها »

وعن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول « والله لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت »

* * *

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)

هذه آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل أن الآية الدالة على وجوب الحج هى قوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة) ولكن الآية الأولى أظهر ، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا وإنما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والاجماع .

وفى رواية عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » فقال : رجل أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »

وأما الاستطاعة للحج فأقسام فتارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه وتارة بغيره كما هو مقرر فى كتب الأحكام .

وفى الحديث عن ابن عباس « تعجلوا إلى الحج - يعنى الفريضة - فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له » وفى تفسير قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا) قال ابن عباس من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلا ، وذكر بعضهم فى الاستطاعة « السبيل والصحة والزاد والبعير » .

وقوله تعالى : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه .

وعن عبد الرحمن بن غنيم أنه سمع عمر رضى الله عنه يقول لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الامصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين .

* * *

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم . وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون وسيجزيهم على ذلك (يوم لا ينفع مال ولا بنون)

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) وهكذا قال في هذا السياق ههنا (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، وهذا كقوله تعالى (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال يوما لأصحابه « أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ » قالوا : الملائكة قال « وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن قال « وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ » قالوا : فأي الناس أعجب إيمانا ؟ قال « قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها »

ثم قال تعالى : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) أى ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة فى الهداية . والعدة فى مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد .

* * *

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ
كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون

(اتقوا الله حق تقاته) قال عبد الله بن مسعود ذلك أن يطاع الله فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر .

وروى عن أنس أنه قال لا يتقى الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه .

وروى بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم)

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

* * *

وقوله تعالى : (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ، ومن مات على شىء بعث عليه فعياذا بالله من خلاف ذلك .

* * *

وروى مجاهد إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم

مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا عيشتهم فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم » وفى الحديث « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »

وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » وفى حديث آخر صحيح « إن الله قال أنا عند ظن عبدى بى ، فإن ظن بى خيراً فله ، وإن ظن بى شراً فله » .

* * *

وروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال :

كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبى يعوده فوافقه فى السوق فسلم عليه فقال له « كيف أنت يا فلان » ؟ قال : بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال رسول الله ﷺ « لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه ما يرجو وآمنه مما يخاف »

وقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

قيل (بحبل الله) أى بعهد الله كما قال فى الآية بعدها (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى بعهد وذمة ، وقيل بحبل من الله يعنى القرآن كما روى عن على مرفوعا فى صفة القرآن الكريم « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم »

وقد جاء فى حديث رواه أبو سعيد : « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »

وعن الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه »

وقوله : (ولا تفرقوا) أمر بالجماعة ونهى عن التفرقة ، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف ومن ذلك ما رواه أبو هريرة « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا

به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقد وقع الاختلاف في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار وهم الذين ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

* * *

وقوله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا) إلى آخر الآية . . وهذا السياق في شأن الاوس والخزرج فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم فلما جاء الإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى قال الله تعالى (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان وقد أمتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين فعتب على من عتب منهم بما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » ؟ فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن .

وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار وغيره . أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وغيرها ، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا للقتال فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ » وتلا عليهم تلك الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم .

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ۞ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ۞ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ۞ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ۞ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ۞ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ۞ ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور

ولتكن منكم أمة منتصبة بأمر الله فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون . قال الضحاك : هم خاصة الصحابة والمجاهدون والعلماء.

وفى الحديث الشريف « الخير أتباع القرآن وسنتى »

۞ ۞ ۞

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وفى رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

۞ ۞ ۞

وفى حديث آخر رواه حذيفة بن اليمان « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم »

ثم قال تعالى (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

وفى ذلك نهى من الله تعالى لهذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضية فى افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم

روى عن عبد الله بن يحيى أنه قال : حججنا مع معاوية بن أبى سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال « إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعنى الأهواء — كلها فى النار إلا واحدة — وهى الجماعة — وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى أن لايقوم به .

وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)

يعنى يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقال الحسن البصرى هم المنافقون .

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهذا الوصف يعم كل كافر .

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) أى الجنة يمكثون فيها أبدا لايبغون عنها حولا .

* * *

(تلك آيات الله نتلوها عليك) أى هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يامحمد (بالحق) أى نكشف ما الأمر عليه فى الدنيا والآخرة (وما الله يريد ظلماً للعالمين) بل هو الحاكم العدل الذى لا يجور ، لأنه القادر على كل شىء ، العالم بكل شىء فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه . ولهذا قال تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) فالجميع عبيد له (وإلى الله ترجع الأمور) فهو الحاكم المتصرف فى الدنيا والآخرة .

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أى خير الأمم وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ ، وهو على المنبر فقال يا رسول الله أى الناس خير ! قال « خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصاهم للرحم » .

وفى حديث آخر «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» وهو حديث مشهور

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم .

* * *

وعن على بن طالب أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت مالم يعط أحد من الأنبياء » فقلنا يارسول الله ماهو ؟ قال « نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد وجعل التراب لى طهورا وجعلت أمتى خير الأمم »

* * *

وعن أبى الدرداء أنه قال سمعت أبا القاسم ﷺ يقول « إن الله تعالى يقول ياعيسى إنى باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم قال : يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ ! قال أعطيهم من حلمى وعلمى » .

* * *

وقد وردت أحاديث يناسب ذكر بعضها ها هنا فعن أبى بكر الصديق عن رسول الله ﷺ « أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا » فقال أبو بكر رضى الله عنه : فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادى

* * *

قال شرع بن عبيدة : مرض ثوبان بحمص وعليها عبد الله بن قرط الأزدى فلم يعده فدخل على ثوبان رجل من الكلاعيين عائدا له فقال له ثوبان : أتكتب ؟ فقال : نعم قال اكتب : فكتب للأمير عبد الله بن قرط من ثوبان مولى رسول الله ﷺ . أما بعد فإنه لو كان لموسى وعيسى عليهما السلام بحضرتك خادم لعدته ، ثم طوى الكتاب وقال له أتبلغه إياه ؟ قال نعم .

فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قرط فلما رآه قام فزعا فقال الناس ما شأنه أحدث أمر ؟ فأتى ثوبان فدخل عليه فعاده وجلس عنده ساعة ثم قام فأخذ ثوبان بردائه فقال : اجلس حتى أحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول « ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا »

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ثم غدونا إليه فقال « عرضت على

الأنبياء الليلة بأمها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي ومعه النفر ، والنبي وليس معه أحد ، حتى مر على موسى عليه السلام ومعه كبكبة من بني إسرائيل فأعجبوني فقلت من هؤلاء ؟ قيل : هذا أخوك موسى ومعه بنو إسرائيل فقلت : وأين أمتي ؟ فقيل أنظر عن يمينك فنظرت فإذا الضراب قد سد بوجوه الرجال فقيل لي أرضيت ؟ فقلت : رضيت يارب . قال : فقيل لي : إن مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » .

فقال النبي ﷺ : « فداكم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفا فافعلوا فإن قصرتم فكونوا من أهل الضراب ، فإن قصرتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثم أناسا يتهاوشون » فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم أي من السبعين ألفا فدعا له ، فقام رجل آخر فقال أدع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم فقال « سبقك بها عكاشة » قال ثم تحدثنا فقلنا من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا حتى ماتوا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « هم الذين لايسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون . »

* * *

تحدث حصين عبد الرحمن قال :

كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ ثم قلت أنا ثم قلت أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت قال فما صنعت ؟ قلت استرقيت قال فما حملك على ذلك قلت حديث حدثناه الشعبي قال وماحدثكم الشعبي قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال : « لارقية إلامن عين أو حمة » قال قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل هذا موسى وقومه ، ولكن أنظر إلى الأفق الآخر فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » .

عن ابن الزبير أنه سمع جابرا أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة » قال : فكبرنا .

ثم قال « أرجو أن يكونوا ثلث النـــاس » قال : فكبرنا ثم قال « أرجو أن يكونوا الشطر » .

* * *

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فمن اتصف من هذه الأمة بهـــذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية (كنتم خير أمة أخرجت للنـاس) ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها :

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هـذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب) أى بما أنزل على محمد (لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) أى قليل منهم من يؤمن بالله وماأنزل إليكم وماأنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان

* * *

ثم قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب والكفرة الملحدين فقال تعالى (لن يضروكم إلا أذى وإن يقـاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون) هكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة كلهم أذلهم الله .

ثم قال تعالى (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون (إلا بحبل من الله) أى بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة (وحبل من الناس) أى أمان منهم لهم فى المهادن والمعاهد ، والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة

* * *

(وباءوا بغضب من الله) فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه (وضربت عليهم المسكنة) أى ألزموها قدرا وشرعا . ولهذا قال (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) أى إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد

فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدا متصلا بذل الآخرة ثم قال تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصى الله والاعتداء فى شرع الله ، فعياذا بالله من ذلك ، والله عز وجل المستعان .

* * *

ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ۞ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ۞ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ۞ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ۞ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

(ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) قال ابن مسعود لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ وقد روى أن رسول الله أخر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » فنزلت هذه الآيات : (ليسوا سواء من أهل الكتاب — إلى قوله — والله عليم بالمتقين) والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى (ليسوا سواء) أى ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ولهذا قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة

نبي الله فهي قائمة يعني مستقيمة (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أي يقيمون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن في صلواتهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) ولذلك قال تعالى ههنا (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء (والله عليم بالمتقين) فلا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا، ثم قال تعالى مخبرا عن الكفرة المشركين بأنه (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) فلا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

* * *

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال : (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) أي برد شديد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أي حرثته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به ، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا لأنهم أقاموها على غير أصل وعلى غير أساس (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون)

* * *

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ۞ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ۞ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، فالمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا أى يسعون فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم) أى من غيركم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره

وفى الحديث الشريف : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله »

* * *

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبا ، فقال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين .

ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة التى فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التى يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى (لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم)

روى بعض القوم أنهم كانوا يأتون أنساً رضى الله عنه فإذا حدثهم بحديث لم يدروه ذهبوا إلى الحسن البصرى يسألونه تفسير ما غمض عليهم من حديث أنس ، وقد حدثهم أنس ذات يوم عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنساً حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً » محمد ﷺ ، وأما قوله « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول لا تستشيروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك فى كتاب الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم)

وفى حديث آخر « من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله »

* * *

ثم قال تعالى : (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) أى قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى : (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

وقوله تعالى (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهرا (وتؤمنون بالكتاب كله) أى ليس عندكم فى شىء منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والريب والحيرة . بينما أنتم تؤمنون بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب من قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهذا شأن المنافقين من إظهار المودة والانطواء فى الباطن على خلاف ذلك بل يشتد بهم فى السر الغيظ منكم (قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) فمهما كنتم تحسدون المؤمنين ويغيظكم إيمانهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، فموتوا أنتم بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) وبما تكتمه سرائركم من الحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون منها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها .

ثم قال تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين جدب أو شىء من السوء . لما لله تعالى فى ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد — فرح المنافقون بذلك قال الله تعالى مخاطبا المؤمنين (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به . وهو الذى ما شاء كان . ومالم يشأ لم يكن ، ولا يقع فى الوجود شىء إلا بتقديره ، ومن توكل عليه كفاه .

* * *

ثم شرع تعالى فى ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين .

قال الله تعالى :

وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون .

المراد بهذا موقعة أحد عند الجمهور ، وكانت يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة لاحدى عشر ليلة خلت من شوال ، وقيل يوم السبت للنصف وسببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر وسلمت العير بما فيها من التجارة التى كانت مع أبى سفيان قال أبناء من قتل ورؤساء من بقى لأبى سفيان أرصد هذه الاموال لقتال محمد فأنفقوها فى ذلك ، فجمعوا الجموع والاحابيش وأقبلوا فى نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة .

فلما صلى رسول الله ﷺ الجمعة استشار الناس « أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ » فأشار عبد الله بن أبى بالمقام بالمدينة فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم .

فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج إليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا استكرهنا رسول الله ، فقالوا يارسول الله إن شئت أن نمكث فقال رسول الله ﷺ « ماينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له » فسار النبى فى ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش مغضباً لكونه لم يرجع إلى قوله وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم ولكنا لانراكم تقاتلون .

واستمر رسول الله سائرا حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال « لايقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال » وتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه . وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم « انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلاتبرحوا مكانكم » وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار ، وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بنحو سنتين .

* * *

وتهيأ قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائة فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ودفعوا اللواء إلى بنى عبد الدار ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله ولهذا قال تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) أى تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم (والله سميع عليم) سميع لما تقولون عليم بضمائركم .

* * *

(إذ همت طائفتان أن تفشلا) .

قال عمر سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، فنحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ـ وقال سفيان ـ وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى (والله وليهما) وقوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) أى يوم بدر، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله ودفع فيه الشرك وضرب محله وضربه هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فيهم فارسان وسبعون بعيرا والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدد يومئذ ما بين التسعمائة والألف فى سوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد ، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله وبيض وجه النبى وقبيله وأخزى الشيطان وجيله ، ولهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أى قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله

لا بكثرة العدد ، ولهذا قال سبحانه فى الآية الأخرى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا - إلى - غفور رحيم)

روى عن شعبة السماك أنه قال :

سمعت عياضا الأشعرى قال شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء أبو عبيدة ويزيد ابن أبى سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض - فلما استعدوا للقتال كتبوا إلى أبى عبيدة ليكون أميرا عليهم فكتب إليهم أنه قد جاء فى كتابكم تستمدونى ، وإنى أدلكم على من هو أعز نصرا ، وأحصن صبرا ، الله عز وجل فاستنصروه فإن محمدا ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم فإذا جاءكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى ، قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ قال: وأصبنا أموالا فتشاورنا فأشار علينا عياض أن نعطى عن كل ذى رأس عشرة .

(فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أى تقومون بطاعته

* * *

إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم . ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون . ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم .

اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ وذهبوا فى ذلك مذهبين .

(الرأى الأول) أن قوله تعالى (إذ تقول للمؤمنين) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله ببدر) وهذا رأى الحسن البصرى وغيره

وقد جاء عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين - إلى قوله - مسومين)

* * *

(الرأى الثانى) أن هذا الوعد متعلق بقوله (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد وهذا رأى مجاهد وعكرمة وغيرهما ، ولكن قالوا لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ لقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد

* * *

وقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) أى تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقونى وتطيعوا أمرى (ويأتوكم من فورهم هـذا) أى من وجههم وغضبهم وقوله تعالى (يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضا فى نواصى خيولهم

وقال قتادة وعكرمة (مسومين) أى بسيما القتال

* * *

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم) أى وما أنزل الله الملائكة وأعلمهم بانزالهم إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا ، وإلا فإنما النصر من عند الله الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ولهذا قال ههنا (وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أى هو ذو العزة التى لا ترام . والحكمة فى قدره والأحكام

ثم قال تعالى (ليقطع طرفا من الذين كفروا) أى أمركم بالجهاد والجلاد لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار والمجاهدين فقال (ليقطع طرفا) أى ليهلك أمة (من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا) أى يرجعوا (خائبين) لم ينالوا ما أملوا .

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لاشريك له فقال تعالى (ليس لك من الأمر شىء) بل الأمر كله إلى كما قال تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال (وإنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

* * *

وقال محمد بن اسحق فى قوله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال (أو يتوب عليهم) مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة (أو يعذبهم) فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم (فإنهم ظالمون) يستحقون ذلك

روى عمرو بن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية من الفجر « اللهم العن فلانا وفلانا » بعد مايقول (سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد) فأنزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) إلى آخر الآية

ثم قال تعالى (ولله مافى السموات ومافى الأرض) الآية أى الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولايسئل عما يفعل وهم يسئلون والله غفور رحيم .

يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التى أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة

عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين .

ينهى تعالى عباده عن تعاطى الربا وأكله أضعافا مضاعفة كما كانوا فى الجاهلية حين كانوا يقولون إذا حل أجل الدين إما أن تقضى وإما أن تربى فإن قضاه وإلا زاده فى المدة وزاده الآخر فى القدر وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا ، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى والآخرة ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) أى كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل أن معنى قوله عرضها السموات والأرض تنبيها على اتساع طولها كما قال فى صفة فرش الجنة (بطائنها من استبرق) أى فما ظنك بالظهائر وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش والشىء المقبب والمستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن » وهذه الآية كقوله فى سورة الحديد (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض)

وقد روى فى مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبى ﷺ « سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار » ؟

وهذا يحتمل معنيين .

(أحدهما) أن يكون المعنى فى ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل .

(والثانى) أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل (كعرض السموات والأرض) والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار والله أعلم ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال (الذين ينفقون فى السراء والضراء) أى فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفى جميع الأحوال كما قال (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق فى مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر .

وقوله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) أى إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم ، وقد ورد فى بعض الآثار «يقول الله تعالى يا ابن آدم أذكرنى إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك »

وفى حديث وراه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن خزن لسانه ستر الله عورته ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » .

وفى حديث آخر : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »

وفى رواية لابن مسعود :

قال رسول الله ﷺ « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله »

قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال ورثه قال اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله ، مالك من مالك إلا ما قدمت وما لوارثك إلا ما أخرت » قال ابن مسعود : وقال رسول الله ﷺ : « ما تعدون الصرعة فيكم » ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : « لا . ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » قال ابن مسعود : وقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما الرقوب » ؟ قلنا الذى لا ولد له قال « لا ، ولكن الرقوب الذى لا يقدم من ولده

شيئا » وفى رواية أخرى زيادة فى الحديث فقال « أتدرون من الصعلوك » ؟ قالوا الذى ليس له مال فقال النبى ﷺ : « الصعلوك كل الصعلوك الذى له مال فمات ولم يقدم منه شيئا » .

* * *

سأل حارثة بن قدامة السعدى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولا ينفعنى وأقلل على لعلى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول « لا تغضب »

* * *

كان أبو ذر رضى الله عنه يسقى على حوض له فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد على أبى ذر ويحسب شعرات رأسه ، فقال رجل ، أنا فذهب على الحوض فدقه ، وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له ، يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت .فقال : إن رسول الله ﷺ قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع »

* * *

قال أبو وائل الصفانى : كنا جلوسا عند عروة بن محمد إذ دخل عليه رجل فكلمه بكلام أغضبه فلما أن أغضبه قام ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال : حدثنى أبى عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ، ألا أن عمل الجنة حزن بربوة — ثلاثا — ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وقى الفتن ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانا »

* * *

عن يونس بن عبيد فى قوله تعالى (والكاظمين الغيظ) أى لا يعملون غضبهم فى الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل .

ثم قال تعالى (والعافين عن الناس) أى مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الأحوال ولهذا قال (والله يحب المحسنين)

فهذا من مقامات الإحسان وفى الحديث : « ثلاث أقسم عليهن ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله وعن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه »

وفى حديث عن ابن عباس « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة »

* * *

وقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) أى إذا صدر منهم ذنب اتبعوه بالتوبة والاستغفار وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن رجلا أذنب ذنبا فقال : يارب إنى أذنبت ذنبا فاغفره لى فقال الله عز وجل : عبدى عمل ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنبا آخر فقال : رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال تبارك وتعالى علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم عمل ذنباً آخر فقال رب إنى عملت ذنباً فاغفره لى فقال عز وجل علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » .

وعن أبى هريرة أيضا قال : قلنا يا رسول الله : إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد فقال « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى كنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم فى بيوتكم . ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم » قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وبلاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول له الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »

وفى حديث روى عن أبى بكر « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويخشى الوضوء ثم يصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له »

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : بلغنى أن أبليس حين نزلت هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) بكى

وعن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فاكثروا منهما فإن إبليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون .

وعن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ « قال إبليس : يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم مادامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الله تعالى . وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى »

وقوله تعالى (ومن يغفرالذنوب إلا الله) أى لايغفرها أحد سواه ؛ وقد أتى إلى النبى ﷺ بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمـــد فقال النبى ﷺ « عرف الحق لأهله »

* * *

وقوله (ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) أى تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة »

(وهم يعلمون) أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وكقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) ونظائر هذا كثيرة وفى الحديث « ارحموا ترحموا . واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين الذين يصرون على مافعلوا وهم يعلمون »

ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم أى جزاءهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)

* * *

قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا

ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون

يقول تعالى لعباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون (قد خلت من قبلكم سنن) أى قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من اتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ثم قال تعالى (هذا بيان للناس) يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم : (وهدى وموعظة) هو القرآن فيه خير ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أى زاجر عن المحارم والمآثم . ثم قال تعالى للتشجيع المؤمنين (ولا تهنوا) فلا تضعفوا بسبب ما حدث (ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) فالعاقبة والنصر لكم (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) فإن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم مثل ذلك من قتل وجراح (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فتديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة فى النهاية لما لنا فى ذلك من الحكمة ، ولهذا قال تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) أى لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء (ويتخذ منكم شهداء) يقتلون فى سبيل الله تعالى ويبذلون مهجهم فى مرضاته (والله لا يحب الظالمين)

(وليمحص الله الذين آمنوا) أى يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به وقوله (ويمحق الكافرين) أى فإنهم إن ظفروا وبغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم ثم قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين أى حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى فى سورة

البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) وقال تعالى (ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ولهذا قال ههنا (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) أى لايحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء

وقوله تعالى (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أى كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون على ذلك وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فهاقد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا

ولقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لاتتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ولهذا قال سبحانه (فقد رأيتموه) يعنى الموت شاهدتموه وقت حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال وهو تعبير عن المشاهدة بالتخييل

* * *

وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين . وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين

فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

لما انهزم المسلمون يوم أحد وقتل منهم من قتل ، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً ، وكان رسول الله قد شج رأسه فى الموقعة فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل فحصل ضعف ووهم وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى له أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه .

قال ابن نجيح عن أبيه : أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الإنصارى إن كان محمداً قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينه فنزلت الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) أى رجعتم القهقرى لما حصل لكم من ضعف (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) أى الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه أو اتبعوا رسوله حياً وميتاً .

روى عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبى أنت وأمى والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التى كتبت عليك فقدمتها . وقد خرج وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر قال أبو بكر : أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت قال الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) إلى قوله (وسيجزى الله الشاكرين) .

قال الراوى : فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها . وقال سعيد بن المسيب أن عمر قال والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعرقت حتى ما تقلنى رجلاى . وحتى هويت إلى الأرض .

* * *

وكان على رضى الله عنه يقول فى حياة الرسول ﷺ : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إنى لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به منى .

* * *

وقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا) أى لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له ، ولهذا قال : (كتابا مؤجلا) كقوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) وكقوله (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده)

وهـــذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد .

* * *

قال رجل من المسلمين هو حجر بن عدى : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة — يعنى نهر دجله — ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا . ثم أقحم فرسه ماء النهر ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو . . ولى الأدبار .

* * *

وقوله : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) أى من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له فى الآخرة نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسمه له فى الدنيا كما قال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وقال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) ولهذا قال هنا (وسيجزى الشاكرين) أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ثم قال تعالى مسليا للمؤمنين عما كان وقع فى نفوسهم يوم أحد (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) قيل : معناه كم من نبى قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير .

وقد عاتب الله بهذه الآيات والتى قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : (أفإن مات أو قتل) أيها المؤمنون ارتددتم على دينكم و (انقلبتم على أعقابكم) وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أى جماعات فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم .

وذلك هو الصبر (والله يحب الصابرين)

* * *

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)

أى لم يكن لهم من عادة إلا ذلك (فآتاهم الله ثواب الدنيا) أى النصر والظفر والعاقبة (وحسن ثواب الآخرة) فجمع لهم ذلك مع هذا (والله يحب المحسنين)

* * *

يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم

فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون .

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) ثم بشرهم بأنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين)

* * *

وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »

* * *

عن ابن عباس فى قوله تعالى : (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) قال قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبى ﷺ « إن أباسفيان قد أصاب منكم طرفا ، وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب »

* * *

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) قال ابن عباس ، وعدهم الله النصر وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين فى قوله تعالى (إذ يقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)

إن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار الإسلام فلما حصل ماحصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذى كان مشروطا بالثبات والطاعة ولهذا قال (ولقد صدقكم الله وعده

أى أول النهار (إذ تحسونهم) أى تقتلونهم (بإذنه) بتسليطه إياكم عليهم (حتى إذا فشلتم) جبنتم (وتنازعتم فى الأمر وعصيتم) كما وقع للرماة (من بعد ما أراكم ما تحبون) وهو الظفر بهم (منكم من يريد الدنيا) وهم الذين رغبوا فى الغنائم حين رأوا هزيمة القوم (ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم (ولقد عفا عنكم) أى غفر لكم ذلك الصنيع وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة المسلمين وعددهم (والله ذو فضل على المؤمنين)

* * *

قال عبيد الله أن ابن عباس قال :

ما نصر الله النبى ﷺ فى موطن كما نصره يوم أحد فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله إن الله يقول فى يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه)

* * *

(حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وهذه تخص الرماة وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع وقال « احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا فلما غنم النبى ﷺ وأناخوا عسكر المشركين ، أكب الرماة جميعا فى المعسكر ينهبون ، فلما أخل الرماة تلك الخلة التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله يضرب بعضهم بعضا وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المشركون جولة نحو الجبل وصاح الشيطان قتل محمد فلم يشكوا فى ذلك وظل القوم كذلك حتى رأوا رسول الله وهو يقول « اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله » ويقول مرة أخرى « ليس لهم أن يعلونا » حتى انتهى إلى أصحابه فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل اعل هبل ـ مرتين يعنى الهه ـ أين أين أبى كبشة أين أين أبى قحافة أين أين ابن الخطاب فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله ألا أجيبه قال « بلى » فلما قال : اعل هبل قال عمر : الله أعلى وأجل . فعاد أبو سفيان يصيح أين أين أبى كبشة أين أين أبى قحافة أين أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا

عمر . فقال أبوسفيان يوم بيوم بدر . الأيام دول وإن الحرب سجال قال : فقال عمر لاسواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

وصاح أبوسفيان لقد كان فى القوم مثلة وإن كانت لعن غير ما أمرت ولاأحببت ولا كرهت ولاساءنى ولاسرنى .

فنظر القوم فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله ﷺ « أكلت شيئا » ؟ قالوا : لا قال « ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة فى النار » فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه وجىء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصارى بعد الصلاة وترك حمزة حتى جىء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة

* * *

عن أبى اسحق عن البراء قال

لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشا من الرماة ، أمر عليهم عبد الله ابن جبير وقال « لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلالهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله بن جبير : عهد إلى النبى ﷺ أن لا تبرحوا ، فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا فأشرف أبوسفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ . فقال « لا تجيبوه » فقال أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال لنفسه إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال له : كذبت ياعدو الله أبقى الله لك ما يحزنك ؟ فقال أبو سفيان أعل هبل ، فقال النبى ﷺ « أجيبوه » قالوا ما نقول ؟ قال : « قولوا الله أعلى وأجل فأجاب أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبى ﷺ (أجيبوه) قالوا ما نقول قال : قولوا « الله مولانا ولا مولى لكم »

* * *

فيما تقدم تفسير قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)

وفى قوله تعالى (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) رواية عن ابن اسحق قال : انتهى أنس ابن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله فى رجال من

المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال ما يخليكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ قال فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

وروى عنه أنه رضى الله عنه كان قد غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال للنبى ﷺ ان أشهدنى الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد فلقى يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المسلمين — وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال : أين ياسعد إنى أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامته أو ببنانه وبه بضعة وثمانون من طعنة وضربة رمية بسهم .

هذه قصة أنس ابن النضر رضى الله عنه .

* * *

وقوله تعالى (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد) أى صرفكم عنهم إذ تصعدون فى الجبل هاربين من أعدائكم وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) وقد خلفتموه وراء ظهوركم وهو يدعوكم إلى عدم الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرة . وكان رسول الله ﷺ يناديهم ويقول : « إلى عباد الله ، إلى عباد الله » فذكر الله تعالى صعودهم إلى الجبل ثم ذكر دعاء النبى إياهم

وكان هذا الأمر موضع فخر المشركين وفى ذلك يقول عبد الله الزبعرى يذكر هزيمة المسلمين وهو مشرك بعد لم يسلم فى قصيدة له أولها .

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئا قد فعل

إن للخير والشر مدى ... وكلا ذلك وجه وقبل

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حلت بقباء بركها ... واستحر القتل فى عبد الأشل

حتى يقول من قصيدته تلك :

فقتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

* * *

وروى أنه كان عدد من بقى مع رسول الله إثنا عشر رجلا من الرماة من الأنصار وطلحة ابن عبيد الله وهو يصعد فى الجبل ، فلحقهم المشركون فقال رسول الله ﷺ « ألا أحد لهؤلاء » فقال طلحة : أنا يارسول الله فقال « كما أنت يا طلحة » فقال رجل من الأنصار فأنا يارسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقى معه ثم قتل الأنصارى فلحقوه فقال « ألا رجل لهؤلاء » فقال طلحة مثل قوله الأول ، فقال رجل من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه وأصحابه يصعدون فى الجبل ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل النبى يقول « ألا رجل لهؤلاء » فيقول طلحة فأنا يا رسول الله فيستأذنه رجل من الأنصار فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله حتى قتل من معه من الأنصار ولم يبق مع رسول الله إلا طلحة فأقبل عليهما القوم فقال رسول الله ﷺ : « من لهؤلاء » فقال طلحة أنا فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله حتى أصيبت يد طلحة .

* * *

وثبت فى الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنه قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبى ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام .

* * *

وقد طمع المشركون يوم ذاك فى قتل رسول الله ﷺ لما رأوا الفرصة سانحة وكان أبى بن خلف قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله فلما بلغت رسول الله حلفته قال « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أحد أقبل أبى فى الحديد مقنعا وهو يقول لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله بأبى يدنو منه فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله بها رسول الله فطعنه فى عنقه تدأدأ منها عن فرسه مراراً ، فوقع إلى الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له ، ما أجزعك إنما هو خدش ، فذكر لهم قول رسول الله ﷺ « بل أنا أقتل أبيا » ثم قال والذى نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى الحجاز لماتوا أجمعون ، وكان ابن عمر يقول : مات أبى بن خلف ببطن رابغ ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل فإذا أنا بنار تتأجج لى فهبتها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يهيج به العطش ، وإذا رجل يقول لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله — وهو حينئذ يشير إلى رباعيته — واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله فى سبيل الله »

* * *

وقال ابن اسحق . أصيبت رباعية رسول الله ﷺ ، وشج فى وجنته ، وكلمت شفته وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص ، فحدثنى صالح بن كيسان عن من حدثه عن سعد ابن أبى وقاص قال : ماحرصت على قتل أحد قط كما حرصت على قتل عتبة بن أبى وقاص وإن كان ما علمته لسىء الخلق مبغضا فى قومه ، ولقد كفانى فيه قول رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله »

* * *

وروى أن مالكا أبا أبى سعيد الخدرى لما جرح النبى ﷺ يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل له مجـــه . . أى الفظ الدم من فيك — فقال لا والله لا أمجه أبدا ، ثم أدبر يقاتل فقال النبى ﷺ « من أرادأن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » فاستشهد .

* * *

وقوله تعالى (فأثابكم غما فغم) أى فجزاكم غما على غم .

الغم الأول — كما يقول ابن عباس : بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد .

والغم الثانى — حين علاهم المشركون فوق الجبل ، فهذا الذى أصابكم من القتل والجراح بعد أن كان قد أراكم ما تحبون إنما نالكم ذلك بمعصيتكم أمر ربكم وخلافكم أمر نبيكم ﷺ .

وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) أى على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم (ولا ما أصابكم) من الجراح والقتل (والله خبير بما تعملون)

* * *

ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة

قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم

يقول الله تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون على السلاح فى حال همهم وغمهم ، والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال فى سورة الأنفال فى قصة بدر (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) عن أبي طلحة أنه قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه ، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) فهم أهل شك وريب فى الله تعالى .

فالمؤمنون أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق والجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله ، هؤلاء أنزل عليهم سبحانه من بعد الغم أمنة نعاسا وأما المنافقون منهم فقد كانوا فى قلق وجزع وخوف (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال تعالى فى الآية الأخرى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) وهكذا اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة قد فازوا بالانتصار الدائم وأن الدائرة دارت على الإسلام وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الشديدة فتحمل بهم هذه الظنون ثم أخبر تعالى عنهم أنهم (يقولون) فى تلك الحال (هل لنا من الأمر من شيء) فقال تعالى :

(قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك) ثم فسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله : (يقولون لو كان لنا من الامر شىء ما قتلنا ههنا) فهم يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

* * *

وروى الزبير عن مثل هذا الحال فقال : لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره فوالله إنى لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول (لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) فحفظتها منه وفى ذلك أنزل الله (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا)

(قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) فهذا قدر الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وإنما ذلك ليمتحنكم الله (وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم) بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس فى الأقوال والأفعال (والله عليم بذات الصدور) وبما يختلج فى السرائر والضمائر .

« • »

ثم قال تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) أى ببعض ذنوبهم السالفة كما قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها .

ثم قال تعالى : (ولقد عفا الله عنهم) أى عما كان منهم من الفرار (إن الله غفور حليم) أى يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم .

« • »

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بصير • ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون • ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون •

ينهى تعالى عباده عن مشابهة الكفار فى إعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض) أى سافروا للتجارة ونحوها (أو كانوا غزى) أى كانوا فى الغزو (لو كانوا عندنا) أى فى البلد (ما ماتوا وماقتلوا) فى السفر أو فى الغزو وقوله تعالى (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) أى خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ثم قال تعالى ردا عليهم (والله يحيى ويميت) بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ولا يزاد فى عمر أحد ولا ينقص منه شىء إلا بقضائه وقدره (والله بما تعملون بصير) علمه وبصره نافذ فى جميع خلقه لايخفى عليه من أمورهم شىء .

« • »

وقوله تعالى (ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله والموت أيضا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى ، ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا فقال تعالى (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) .

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين * إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل

المؤمنون * وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون . لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين

يقول تعالى مخاطبا رسوله منتا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره وأطاب لهم لفظه (فبما رحمة من الله لنت لهم) أى جعلك الله لهم ليناً رحمة بك وبهم .

وقال الحسن البصرى ، هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به ، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم .

تحدث أبو إمامة الباهلى فقال : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال « يا أبا إمامة إن من المؤمنين من يلين له قلبى » .

« * »

ثم قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) والفظ الغليظ المراد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك (غليظ القلب) أى لو كنت سىء الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا من حولك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم ، كما قال عبد الله بن عمر إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المقدسة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صحاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

ولهذا قال له تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر) ولذلك كان

رسول الله يشاور أصحابه فى الامر إذا حدث تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر فى الذهاب الى العير ، فقالوا له يارسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغمام لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنـــا قاعدون ، ولكن نقول إذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون .

وشاورهم أيضا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم ، وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الاحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان ، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك .

وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارى المشركين ، فقال له الصديق ، إننا لم نجىء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال وقال ﷺ فى قصة الإفك « أشيروا على معشر المسلمين فى قوم أبنوا أهلى ورموهم ، وأيم الله ماعلمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن ؟ والله ماعلمت عليه إلا خيرا » .

واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها .

« • »

فكان ﷺ يشاور قومه فى الحروب ونحوها ، وقد اختلف الفقهاء فى تأويل ذلك فرأى بعضهم أن ذلك كان واجبا عليه ورأى آخرون أنه من باب الندب لتطييب قلوبهم

وروى أن ابن عباس قال أن هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) نزلت فى أبى بكر وعمر ، وكانا حوارى رسول الله ﷺ ووزيريه وأبوى المسلمين وقد جاء فى حديث عن أبى بكر وعمر « لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما) وقال على بن أبى طالب أن النبى ﷺ سئل عن العزم ؟ فقال « مشاورة أهل الرأى ثم أتباعهم »

ورويت فى المشورة عدة أحاديث منها « المستشار مؤتمن » و « إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه »

« • »

وقوله تعالى: (فإذاعزمت فتوكل على الله) أى إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه (إن الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن

يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهذه الآية كما تقدم من قوله : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

« ✿ »

وقوله تعالى : (وما كان لنبى أن يغل) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : ما ينبغى لنبى أن يخون . وقيل نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال المنافقون لعل رسول الله أخذها ، فأكثروا فى ذلك فأنزل الله (وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) .

وقد فسر بعضهم هذه الآية بأن يترك بعض ما أنزل الله فلا يبلغ أمته أو يقسم لبعض السرايا ويترك بعضا وفى هذه الآية تهديد شـديد ووعد أكيد وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك فى أحاديث متعددة نذكر منها « أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض — أوفى الدار — فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة »

حديث آخر : « من ولى لى عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئا سوى ذلك فهو غال » فمعنى غال — سارق)

« • »

حديث آخر — عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لأعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسما من أدم ينادي يا محمد يا محمد فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك »

« • »

حديث آخر — استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول ، هذا لكم وهذا أهدى لى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم منها بشىء

إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أوشاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رؤيت عفرة إبطيه ، ثم قال : « اللهم هل بلغت ثلاثا

« • »

وفى شأن الهداية لمن ولى عملا يقول ﷺ : هدايا العمال غلول » وعن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل فى أثرى فرددت فقال « أتدرى لم بعثت إليك ؟ لا تصيبن شيئا بغير إذنى فإنه غلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) لهذا دعوتك فامض لعملك »

« • »

حديث آخر — عن عبد الله بن أبى رافع عن أبى رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بنى عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب قال أبو رافع : فبينما رسول الله ﷺ مسرعا إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال : « أف لك أف لك » فلزق فى درعى وتأخرت وظننت أنه يريدنى فقال « مالك » ؟ قلت أحدثت حدثا يا رسول الله ، قال : « وما ذاك » ؟ قال : إنك قلت لى قال : « لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيا على آل فلان فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار »

« • »

حديث آخر — عن عبادة بن الصامت أنه قال : كان رسول الله يأخذ الوبرة من ظهر البعير من الغنم ثم يقول « مالى إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط ، والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد ، فى الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ، وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم »

« • »

حديث آخر — « إن الحجر يرمى به فى جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به انت به فذلك قوله (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة)

« • »

حديث آخر — فى رواية عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد ، حتى أتوا على رجل فقالوا : فلان شهيد فقال رسول الله ﷺ : « كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها — أو عباءة — » ثم قال رسول الله ﷺ « إذهب فناد فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » قال فخرجت فناديت إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون .

قال سالم بن عبد الله أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك فى أرض الروم فوجد فى متاع رجل غلولا وكنا نعلم عن النبى ﷺ أنه قال : « من وجدتم فى متاعه غلولا فأحرقوه قال — وأحسبه قال فاضربوه » فأخرج متاع الرجل فى السوق فوجد فيه مصحفا فسأل سالما فقال بعه وتصدق بثمنه .

وكان الحسن رضى الله عنه يقول : عقوبة الغال أن يخرج رحله فيحرق على ما فيه .

وقال الشافعى ومالك وأبو حنيفة والجمهور لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزير مثله ، وقد قال البخارى قد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه والله أعلم .

« • »

عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس فيجوزوا بغنائمهم فيخمسه ويقسمه فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال يا رسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال « أسمعت بلالا ينادى » ثلاثا قال نعم قال « فما منعك أن تجىء » فاعتذر إليه فقال « كلا أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله منك »

« • »

وقوله تعالى : (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه يوم القيامة وبئس المصير .

وهذه الآية لها نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وكقوله : (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا)

ثم قال تعالى (هم درجات عند الله) أى متفاوتون فى المنازل من الدرجات فى الجنة أو الدركات فى النار كقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) ولهذا قال سبحانه (والله بصير بما يعملون) لا يظلمهم خيرا ، ولا يزيدهم شراً ، بل يجازى كل عامل بعمله

* * *

وقوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته ومسؤاله ومجالسته والانتفاع به . كما قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) أى من جنسكم وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقال تعالى (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) .

فهذا أبلغ فى الخير أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه ولهذا قال (يتلو عليهم آياته) يعنى القرآن (ويزكيهم) بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا عليه فى شركهم وجاهليتهم (ويعلمهم الكتاب والحكمة) وهى القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل) أى من قبل هذا الرسول (لفى ضلال مبين) أى لفى غى وجهل ظاهرين واضحين .

* * *

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .

(ولما أصابتكم مصيبة)

إذا كنتم يوم أحد قد قتل منكم سبعون فأنكم (قد أصبتم مثليهم) يوم بدر فإنكم قتلتم من المشركين سبعين قتيلا وأسرتم سبعين أسيراً فاذا تساءلتم كيف حدثت الهزيمة (قل هو من عند أنفسكم) .

قال عمر بن الخطاب : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه فأنزل الله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) بأخذكم الفداء .

وعن على رضى الله عنه أنه قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم فليس فى ذلك ما نكره ؟ قال فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا ، عدة أسارى أهل بدر .

« • »

وفى تفسير قوله تعالى (قل هو من عند أنفسكم) قال محمد بن اسحاق وابن جرير وغيرهما أن ذلك بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم — يعنى بذلك الرماة — (إن الله على كل شىء قدير) يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ثم قال تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله) أى فزاركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة فى ذلك (وليعلم المؤمنين) الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) هم أصحاب عبد الله بن أبى سلول الذين رجعوا معه فى أثناء الطريق فاتبعهم

رجال من المؤمنين يحرضونهم على الأتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال (أوادفعوا) قيل تفسيرها ـ يعنى كثروا سواد المسلمين وقيل ادفعوا أى رابطوا ، فتعللوا قائلين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم)

* * *

تحدث سعد بن معاذ فقال : خرج علينا رسول الله ﷺ حين خرج إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبى مسلول بثلث الناس فقال : أطاعهم فخرج وعصانى ووالله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لانرى أن يكون قتال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم ومضى رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان لقوله : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم الإيمان)

* * *

ثم قال تعالى : (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) يعنى أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا : (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) فإنهم تحققوا أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب به أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ومع هذا قالوا بخلاف ما يعلمون ولهذا قال تعالى : (والله أعلم بما يكتمون) ثم قال (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) أى لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى : (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغى أنكم لا تموتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .

قال جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه .

* * *

ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون • فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون • يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين • الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم • الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم • إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين

إخبار من الله تعالى بأن الشهداء وإن قتلوا فى هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة فى دار القرار .

عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »

وقد رويت فى هذا المعنى أحاديث كثيرة منها :

« ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلا الدنيا إلى الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة »

وعن جابر قال : قال لى رسول الله ﷺ « أعلمت أن الله أحيا إباك فقال له : تمن فقال له : أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى قال إنى قد قضيت أنهم لا يرجعون »

وقد ثبت فى الصحيحين أن أبا جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصارى رضى الله عنه قتل يوم أحد شهيداً ، وقال النجارى وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابراً قال لما قتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى والنبى ﷺ لم ينه فقال النبى ﷺ : « لا تبكيه ـ أو ما تبكيه ـ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع »

« ٥ »

وفى رواية عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وما بعدها »

« ٥ »

وروى عن جابر بن عبد الله أنه قال : نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا جابر مالى أراك مهتما » ؟ قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك ديناً وعيالا قال : فقال : « ألا أخبرك ما حكم الله أحداً قط إلا من ورائى حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا » قال على والكفاح المواجهة « قال سلنى أعطك . قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى القول أنهم إليها لا يرجعون قال أى رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الآية »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » وفى حديث آخر « نسمة

المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قوله يعلق ـ أى يأكل ـ وفى حديث « إن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة » وأما أرواح الشهداء فكما تقدم فى حواصل طير خضر فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

« • »

وقوله تعالى : (فرحين بما آتاهم الله) إلى آخر الآية أى الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم سيقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة .

« • »

قال محمد بن اسحق : (ويستبشرون) أى ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم فى الجهاد ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم .

قال السدى : يؤتى الشهيد بكتاب فيه ، يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم .

* * *

قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين فى الدنيا يعملون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم ربهم أنى قد أنزلت على نبيكم خبراً بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله : (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) .

* * *

ثم قال تعالى : (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم

وقوله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) كان ذلك يوم حمراء الأسد وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا فى سيرهم ندموا لعدم انتهازهم الفرصة التى ظنوا فيها أن المسلمين قد ضعفوا للاغارة على المدينة وقتل أهلها فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين للذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدا ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد غير جابر بن عبد الله رضى الله عنه لما سنذكره فذهب المسلمون على ما بهم من جراح طاعة لله عز وجل ولرسوله .

* * *

وفى هذا قال عكرمة : لما رجع المشركون عن أحد قالوا لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ ذلك فندب المسلمين فذهبوا خلف المشركين حتى بلغوا حمراء الأسد . . أو بئر عيينة ـ فقال المشركون ، نرجع من قابل فرجع رسول الله ﷺ فعدت هذه غزوة فأنزل الله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)

* * *

ومما هو جدير بالذكر فى هذه المناسبة ما كان ذلك اليوم من جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام . قال فى ذلك محمد بن اسحق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو فقال يا رسول الله إن أبى كان خلفنى على إخوات لى سبع وقال : يا بنى إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى فتخلف على إخوتك فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه .

* * *

وعن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل ، كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخى ورجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى ـ أو قال لى ـ أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح

تقيل فخرجنا مع رسول الله ، وكنت أيسر جراحا ، فكان إذا تعب حملته ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

* * *

وهذا السياق فى تفسير قوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول)

قال ابن هشام فى شأن غزوة حمدان الأسد هذه ، فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الأثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقد مر به عبد الله بن أبى بكر معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة وكان معبد يومئذ مشركا فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم خرج رسول الله حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا يقولون : أصبنا محمداً وأصحابه وقادتهم وأشرافهم فلانرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرن على بقيتهم ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبوسفيان معبداً قال : ماوراءك يامعبد ؟ قال محمد وأصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماصنعوا ، فهم من الحنق عليكم بشىء لم أر مثله قط . قال : ويلك ما تقوله ، قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل ، قال أبو سفيان فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال معبد فإنى أنهاك عن ذلك ووالله لقد حملنى مارأيت أن قلت فيهم أبياتا من شعر قال وما قلت : قال معبد قلت :

كادت تهد من الاصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الابابيل

تروى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالخيل

إنى نذير لاهل السيل ضاحية ... لكل ذى إربة منهم ومعقول

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر به ركب من عبد القيس فقال أين تريدون؟ ، قالوا نريد المدينة قال ولم ؟ ، قالوا نريد الميرة ، قال فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غدا زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ، قالوا نعم قال فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب

برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبوسفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وذكر ابن هشام عن أبى عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم : « والذى نفسى بيده لقد سومت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب »

* * *

وقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم إيمانا) أى الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل قد توكلوا على الله واستعانوا به وقالوا (حسبنا الله ونعم الوكيل) وقد قال ابن عباس : أن هذه الآية قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »

وعن عوف بن مالك أنه قال أن النبى ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ « ردوا على الرجل » فقال « ماقلت » قال قلت حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبى ﷺ « إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل »

* * *

وروى عن أمى المؤمنين زينب وعائشة رضى الله عنهما أنهما تفاخرتا فقالت زينب زوجنى الله وزوجكن أهاليكن، وقالت عائشة نزلت براءتى من السماء فى القرآن فسلمت لها زينب ثم قالت كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن العطل ؟ قالت قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت زينب ، قلت كلمة المؤمنين ولهذا قال تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) أى لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم (بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) مما أضمر لهم عدوهم (واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)

* * *

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يوهمكم أنهم ذو بأس وذوو شدة. قال الله تعالى : (فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجأوا إلى فإنى كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى : (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) إلى قوله : (قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال تعالى : (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وقال تعالى : (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وقال: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال (ولينصرن الله من ينصره) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

* * *

ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ۞ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ۞ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير

يقول تعالى : لنبيه ﷺ (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) وذلك لأنه من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق . فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك (إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة) أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة (ولهم عذاب عظيم) .

ثم يقرر الله تعالى حال هؤلاء : (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) أى استبدلوا هذا بهذا (لن يضروا الله شيئا) ولكن يضرون أنفسهم (ولهم عذاب أليم) ثم قال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) كقوله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وكقوله : (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وكقوله : (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) .

* * *

ثم قال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)

أى لابد أن يعقد شيئا من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ولهذا قال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)

قال السدى : قالوا إن كان محمد صادقا فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أى حتى يخرج المؤمن من الكافر . ثم قال تعالى : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى أنتم لا تعلمون غيب الله فى خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك .

* * *

ثم قال تعالى : (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء)

كقوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) ثم قال تعالى : (فآمنوا بالله ورسله) أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم (وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)

* * *

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم) فلا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه فى دينه ، وربما كان فى دنياه ثم أخبر تعالى بمآل أمر هؤلاء يوم القيامة فقال (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)

وفى الحديث : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - ثم يقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) إلى آخر الآية .

* * *

وفى حديث آخر :

« من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعا أقرع يوم القيامة له زبيبتان يتبعه فيقول ، من أنت ويلك ؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعـــدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده »

وفى حديث آخر :

« ما من ذى رحم يأتى ذا رحمة فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه »

وقال تعالى (ولله ميراث السموات والأرض) أى (فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم (والله بما تعملون خبير) بنياتكم وضمائركم .

* * *

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد * الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين * فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس . لما نزل قوله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) .

قالت اليهود : يا محمد . افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)

وفي رواية عن ابن عباس أيضا قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله واسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر . وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه الأغنياء ، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد . أبصر ما صنع بي صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » فقال : يا رسول الله

إن عـــدو الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص وتصديقا لأبي بكر : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) .

* * *

وقوله تعالى : (سنكتب ما قالوا) تهديد ووعيـــد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : (وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى هذا قولهم فى الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى : (ونقول ذوقوا عذاب الحريق ۞ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا ، وقوله تعالى : (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) يقول تعالى تكذيبا لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها .

* * *

(قل جاءكم رسل من قبلى بالبينات) بالحجج والبراهين (وبالذى قلتم) عن النار التى تأكل القرابين المتقبـــلة (فلم قتلتموهم) أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم (إن كنتم صادقين) بزعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل

ثم قال تعالى : مسليا لنبيه محمد ﷺ (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) أى لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ـ ذلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات وهى الحجج والبراهين القاطعة (والزبر) وهى الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين (والكتاب المنير) أى الواضح الجلى .

* * *

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور .

يخبر تعالى إخباراً عاما يعم جمع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فهو تعالى وحده الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرا كما كان أولا ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها كثيرها وقليلها كبيرها وصغيرها . فلا يظلم أحدا مثقال ذرة ولهذا قال تعالى (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة)

* * *

قال جعفر بن محمد عن أبيه أن على بن أبى طالب قال : لما توفى النبى ﷺ وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته (كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله . .

قال جعفر بن محمد ، فأخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام .

* * *

وقوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) من النار ونجا منها وفاز كل الفوز وأدخل الجنة . وفى الحديث الشريف : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم (زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . »

وقد تقدم عند قوله تعالى : (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ما رواه وكيع بن الجراح فى تفسيره ما جاء عن النبى ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

* * *

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)

تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها . وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال : (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) وفى الحديث : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى أليم فلينظر بم ترجع إليه »

وقال قتادة فى قوله تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) قال : هى متاع متروكة تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة إن استطعتم ولا قوة إلا بالله .

« • »

وقوله تعالى : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) كقوله تعالى (وليبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) إلى آخر الآيتين . أى لابد أن يبتلى المؤمن فى شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء .

« • »

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا)

يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسليا إياهم عما ينالهم من أهل الكتاب والمشركين وآمرا لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)

قال أسامة بن زيد : كان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى وكان رسول الله يتأول فى العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم .

وقال تعالى : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) وهكذا ظل رسول الله على العفو ، فلما غزا بدرا وقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبى سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فبايعوا وأسلموا — فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلابد أن يؤذى وماله من دواء إلا الصبر فى الله، والاستعانة بالله والرجوع إلى الله .

وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم * ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير .

إنه توبيخ من الله تعالى وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الخفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم .

وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ماأصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما عندهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئا . فقد جاء فى الحديث الشريف : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »

« • »

وقوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا)

يعنى بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا وفى الصحيحين : « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة » وفى الصحيحين أيضا : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » .

« • »

قال ابن مروان لصاحب له اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : ائن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين ، فقال ابن عباس : ما لكم وهذه إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس (وإذ أخذ الله ميثاق

الذين أوتوا الكتاب لتبيننه ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون)

وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه .

« • »

وقال أبو سفيان الجندى : أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت فيهم هذه الآية .

ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما روى عن أبى سعيد الخدرى لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر والله أعلم . . وقد روى أن ثابت بن قيس الأنصارى قال : يارسول الله لقد خشيت أن أكون هلكت قال : « لم » قال : نهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » ؟ فقال بلى يا رسول الله .

فعاش حميداً ومات شهيداً يوم مسيلمة الكذاب .

« • »

وقوله تعالى : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) أى لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى: (ولله ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء قدير) أى هو مالك كل شىء والقادر على كل شىء فلا يعجزه شىء فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه القدير الذى لا أقدر منه .

« • »

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

عن ابن عباس أنه قال :

أتت قريش اليهود فقال : بم جاءكم موسى ؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى ؟ قالوا كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) فليتفكروا فيها .

ومعنى الآية أن الله تعالى يقول (إن فى خلق السموات والأرض) أى فى ارتفاعها واتساعها ، وانخفاضها وكثافتها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من أشجار ونبات وزروع وثمار وصوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا . ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ، ويقصر الذى كان طويلا وكل ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا قال تعالى : (لآيات لأولى الألباب) أى العقول التامة الزكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، والذين قال الله فيهم : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) . كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال « صل قائما فإن لم تستطع فعلى جنبك » (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض)

أى يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته .

« ٥ »

قال الشيخ أبو سليمان الدارانى .

إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة

وعن الحسن البصرى أنه قال :

تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال أيضا : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقال سفيا بن عيينة ، الفكرة نور يدخل قلبك ، وكان يتمثل بقول الشاعر :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

« ٥ »

وعن عيسى عليه السلام أنه قال :

طوبى لمن كان قيله تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً .

وقال لقمان الحكيم :

إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة .

وقال وهب بن منبه ، ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم

وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز دليل حسن ، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة .

وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار . وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها .

وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه قد ذهب عقله .

وقال عبد الله بن المبارك .

مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر . كنز الرجال وكنز الأموال .

وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول . أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول (كل شىء هالك إلا وجهه)

« • »

وعن ابن عباس أنه قال :

ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه .

وقال حسن البصرى .

يا ابن آدم كل فى ثلث بطنك . واشرب فى ثلثه . ودع ثلثه الآخر تتنفث للفكرة

وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه .

وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة .

وكان أصحاب النبى ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان التفكر .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن فى الدنيا ضعيفا ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .

* * *

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه بكى يوما بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال فكرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر أن فيها مواعظ لمن اذكر

« • »

وقال ابن أبى الدنيا : أنشدنى الحسين بن عبد الرحمن .

نزهة المؤمن الفكر لذة المؤمن العبر
نحمد الله وحده نحن كل على خطر
رب لاه وعمره قد تقضى وما شعر

« • »

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره

وآياته فقال : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ومدح عباده المؤمنين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) قائلين : (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى ما خلقت هذا الخلق عبثا ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا (سبحانك) أى عن أن تخلق شيئا باطلا (فقنا عذاب النار) أى يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ووجهنا إلى أعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع (وما للظالمين من أنصار) أى يوم القيامة لا يجيرهم منك أحد ، ولا محيد لهم عما أردت بهم (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان) أى داعياً يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ (أن آمنوا بربكم فآمنا) أى يقول آمنوا بربكم فآمنا أى فاستجبنا له واتبعناه بإيماننا واتباعنا نبيك (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها (وكفر عنا سيئاتنا) فيما بيننا وبينك (وتوفنا مع الأبرار) أى ألحقنا بالصالحين (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) أى بما وعدتنا على ألسنة رسلك .

(ولا تخزنا يوم القيامة) أى على رءوس الخلائق (إنك لا تخلف الميعاد) أى لابد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك .

« • »

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آل عمران إذا قام من الليل لتهجده .

فعن ابن عباس رضى الله عنه قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد . فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال (إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) الآيات ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح .

« • »

عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟

قال قول الشاعر . زر غبا تزدد حبا . فقال بن عمر ذرينا أخبرينا بأعجب مارأيتيه من رسول الله ﷺ .

فبكت وقالت ، كل أمره كان عجبا ، أتى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قال يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال « ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »

« • »

فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب

يقول تعالى (فاستجاب لهم ربهم) أى فأجابهم ربهم . وقد روى فى سبب نزول الآية أن أم سلمة قالت يارسول الله لا نسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء . فأنزل الله تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) إلى آخر الآيه

وقوله تعالى (أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) فهو سبحانه يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى (بعضكم من بعض) أى جميعكم فى ثوابى سواء (فالذين هاجروا) وتركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان (وأخرجوا من ديارهم) بعد أن ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولذلك قال عنهم (وأوذوا فى سبيلى) وكان كل

ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

وقوله تعالى (وقاتلوا وقتلوا) وإن أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله وفى الصحيحين أن رجلا قال يارسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابراً محتسبا مقبلا غير مدبر ، أيكفر الله عنى خطاياى ؟ قال « نعم » ولهذا قال تعالى : (لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى تجرى فى خلالها الأنهار مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ثوابا من عند الله) لأنه عظيم كريم لا يعطى إلا جزيلا كثيراً كما قال الشاعر

إن يعذب يكن غراما وإن يعـ ـط جزيلا فإنه لا يبـالى

(والله عنده حسن الثواب)

أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحا ، وقد كان شداد بن أوس يقول أيها الناس لا تتهموا الله فى قضائه فإنه لا يبغى على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئا مما يحب فليحمد الله وإذا أنزل به شيئاً مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب .

« * »

لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار .

لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار المترفين فى النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمدلهم فيما هم فيه استدراجا وجميع ما هم فيه (متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وهذه الآية كقوله تعالى : (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) وقال تعالى : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال تعالى : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) أى قليلا

وقال تعالى : (أفمن وعدناه وعداً حسنا . فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين)

وهكذا لما ذكر فى حال الكفار فى الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عندالله وما عند الله خير للأبرار)

وفى الحديث : « إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا كذا لولدك عليك حق »

عن أبى الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول : (وما عند الله خير للأبرار) ويقول : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين)

. . .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يخبر الله تعالى عن طائفة أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة وأنهم خاشعون لله أى مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا أى لايكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى . وقد قال تعالى فى سورة القصص : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقد قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به)

وقال تعالى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقال تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون الأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)

. . .

وهذه الصفات توجد فى قليل من اليهود كما كان عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أناس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق كما قال تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) إلى قوله تعالى : (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) وهكذا قال فى السياق : (أولئك لهم أجرهم عند ربهم)

. . .

ولقد ثبت فى الحديث أن جعفر بن أبى طالب كلما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشى ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم ، وثبت فى الصحيحين أن النجاشى لما مات نعاه النبى ﷺ إلى أصحابه .

وقال : « إن أخا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه . فقال المنافقون يصلى على علج مات بأرض الحبشة ! ! فأنزل الله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله)

. . .

وقال عياد بن منصور سألت الحسن البصرى عن قول الله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) فقال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ وأتباعهم محمداً .

وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » فذكر منهم رجلا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى .

وقوله تعالى : (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا)

أى لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعلت طائفة منهم بل يبذلون ما يعلمون مجانا ولهذا قال تعالى : (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) أى سريع الاحصاء وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قال الحسن البصرى أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم .

وكذلك قال غير واحد من علماء السلف .

وأما المرابطة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات ، وقيل انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وفى الحديث الشريف : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط »

. . .

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : أقبل على أبو هريرة يوما فقال أتدرى يا ابن أخى فيم نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قلت لا ، قال أما إنه لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزلت (اصبروا) أى على الصلوات الخمس (وصابروا) أنفسكم وهواكم (ورابطوا) فى مساجدكم (واتقوا الله) فيما عليكم (لعلكم تفلحون) .

* * *

وقيل المرابطة مقصود بها حفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك وذكر كثرة الثواب فيه

وفى حديث صحيح رواه البخارى يقول النبى ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

وفى حديث آخر : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان »

وعن مالك الحيني أنه سمع فضالة بن عبيد يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ميت يختم على عمله الا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فانه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر »

وفى رواية أخرى : من مات مرابطاً فى سبيل الله أجرى عليه عمله الصالح الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع الأكبر.

. . .

وفى حديث آخر «حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها »

« . »

تحدث سهل بن الحنظلة فقال أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية فحضرت الصلاة مع رسول الله فجاء رجل فارس فقال: يارسول الله إنى أنطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا هوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم ، فيقسم النبى ﷺ وقال « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله » ثم قال من يحرسنا الليلة » ؟ قال أنس بن أبى مرتد . أنا يارسول الله قال « فاركب » فركب فرسا له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول « استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ولا تغز من قبلك الليلة » فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين فقال « هل أحسستم فارسكم » فقال رجل يارسول الله ماأحسسناد فقام النبى ﷺ إلى الصلاة وجعل وهو يصلى يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » فجعلنا ننظر فى خلال الشجر فى الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف عند النبى ﷺ فقال : إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرتنى فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحدا ، فقال له رسول الله ﷺ « هل نزلت الليلة . » قال لا إلا مصليا أو قاضى حاجة ، فقال له « أوجبت فلا عليك إن لاتعمل بعدها »

« . »

قال الإمام احمد وقال غيره : سمعت أبا ريحانه يقول كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه فأصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر فى الأرض يدخل فيها ويلقى عليه الحجفة يعنى الترس ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى « من يحرسنا هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل » ؟ فقال رجل

من الأنصار أنا يارسول الله قال «ادن» فدنا منه. فقال «من أنت»؟ فتسمى له الأنصارى ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء فاكثر منه « قال أبو ريحانة : فلما سمعت مادعى به، قلت أنا رجل آخر فقال « أدن » فدنوت فقال « من أنت » ؟ قال: فقلت أبو ريحانة. فدعا بدعاء دون مادعا به للانصارى ثم قال « حرمت النار على عين دمعت ـ أو بكت ـ من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله »

وجاء فى حديث « من حرس من وراء المسلمين متطوعا لا بأجرة سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول « وإن منكم إلا واردها » .

وفى حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعطى سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة . »

وهناك أحاديث أخرى كثيرة تتضمن كلها الاشادة بالمرابطة فى سبيل الله ، وقد كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر . أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعده فرجا ، وأن لن يغلب عسر يسرين وإن الله تعالى يقول (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقو الله لعلكم تفلحون)

وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك عن محمد بن ابراهيم ابن أبى سكينة قال : أملى على عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج ، وأنشدها معى إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ومائة وفى رواية سنة سبع وسبعين ومائة .

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لايكذب
لايستوى غبار خيل الله فى أنف أمرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لايكذب

قال فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قال قلت نعم قال فاكتب هذا الحديث عن أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال « هل تستطيع أن تصلى فلاتفتر ، وتصوم فلا تفطر » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبى ﷺ « فوالذى نفسى بيده لو طوقت ذلك مابلغت المجاهدين فى سبيل الله أو ماعلمت أن الفرس المجاهد ليستمد فى طوله فيكتب له بذلك الحسنات »

* * *

وقوله تعالى (واتقوا الله) أى فى جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبى ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتق الله حيثما كنت واتبع الحسنة السيئة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »

« . »

(لعلكم تفلحون) فى الدنيا والآخرة وكان محمد بن كعب القرظى يقول فى قول الله عز وجل (واتقوا الله لعلكم تفلحون) يقول اتقونى فيما بينى وبينكم لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتمونى

* * *

انتهى تفسير سورة آل عمران ، ولله الحمد والمنة .

قال العوفى عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : إن فى سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيـــا ومافيها (إن الله لايظلم مثقال ذرة) و (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) و (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) و (لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك)

وعن ابن عباس أنه قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم) والثانية (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) والثالثة (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) ثم ذكر الخمسة الباقية .

« • »

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً .

يأمر تعالى عباده بتقواه وينبهم إلى قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة ، وهى آدم عليه السلام (وخلق منها زوجها) وهى حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه .

وكان ابن عباس يقول : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته فى الأرض فأحبوا نساءكم .

« • »

وفى الحديث الصحيح : « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج .

• • •

وقوله تعالى : (وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالا كثيراً ونساء ، ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر .

ثم قال تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) أى واتقوا الله بطاعتكم إياه ، وقال إبراهيم ومجاهد والحسن : (الذى تساءلون به) أى كما يقال أسألك بالله وبالرحم ، وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن بروها وصلوها .

وقوله : (إن الله كان عليكم رقيبا) مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : (والله على كل شىء شهيد) وفى الحديث الصحيح « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب . ولهذا ذكر الله تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحنو على ضعفائهم وقد قام النبى ﷺ فى قوم من مجتابى الثمار من مضر كان عليهم مظاهر الفقر والعرى فقال فى خطبته : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) حتى ختم الآية ثم قال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) ثم حضهم على الصدقة فقال : « تصدق رجل من ديناره ، من درهمه من صاع برد ، من صاع تمره » وذكر تمام الحديث كما رواه احمد وأهل السنن عن أبى مسعود فى خطبة الحاجة .

* * *

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۞ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) قال سفيان الثورى عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذى قدر لك ، وقال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم .

وقال سعيد بن المسيب والزهرى : لا تعط مهزولا وتأخذ سمينا .

وقال السدى : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم . ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول : شاة بشاة .

« • »

وقوله تعالى : (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعا وقوله : (إنه كان حوبا كبيرا) أى إثما عظيما .

ويستدل فى تفسير كلمة الحوب بالإثم ما روى أن أبا طلحة أراد أن يطلق امرأته أم سليم فقال النبي ﷺ : « إن طلاق أم سليم لحوب » فأمسكها أبو طلحة .

والمعنى : أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم فاجتنبوه وقوله : (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى) .

قالت عائشة رضى الله عنها فى تفسير ذلك : أن اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى زواجها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

وقالت عائشة أيضا : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله (ويستفتونك فى النساء) قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى : (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

« • »

وقوله : (مثنى وثلاث ورباع) أى أنكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعا ، كما قال تعالى : (جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم

من له أربعة ، ولا ينفى ماعدا ذلك فى الملائكة ولا يجوز الجمع بين أكثر من أربع زوجات

قال الشافعى ، وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه من العلماء ، إلا ما حكى عن طائفة الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم بلا حصر ، وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ فى جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت فى الصحيح ، أو إحدى عشرة كما قد جاء فى بعض ألفاظ البخارى .

* * *

وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع ، وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة . ومن الأحاديث الدالة على الحصر فى أربع أن غيلان ابن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبى ﷺ : « اختر منهن أربعا » فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه فبلغ ذلك عمر فقال ، إنى لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك ، ولعلك لا تلبث إلا قليلا . وايم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رغال .

* * *

قال نوفل بن معاوية الديلى أسلمت وعندى خمس نسوة فقال لى رسول الله ﷺ : « اختر أربعا أيتهن شئت وفارق الأخرى » فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ سنين فطلقتها .

فهذه كلها شواهد على ما ذكرنا .

* * *

وقوله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) أى إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى لا تكثر عيالكم ، وذلك مأخوذ من قوله (وإن خفتم عيلة) أى فقراً (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

وفى هذا التفسير نظر والصحيح قول الجمهور (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى لا تجوروا فيقال عال فى الحكم إذا قسط وظلم وجار ، وقال أبو طالب فى قصيدته المشهورة :

بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

وقال هشيم ابن اسحق ، كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة فى شىء عاتبوه فيه : إنى لست بميزان أعول .

وهذه كلها شواهد على صحة تفسير أدنى ألا تعولوا بأنها « لا تجوروا »

وقوله تعالى : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قال ابن عباس أنه المهر ، وقال بعضهم : إن العرب يقصدون بكلمة النحلة الواجب فلا تنكح المرأة إلا بشىء واجب لها ، وليس ينبغى لأحد بعد النبى ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب ، فضمون ذلك أنه يجب أن يدفع الرجل إلى المرأة صداقا حتما ، وأن يكون طيب النفس بذلك فإن طابت هى له به بعد تسميته أو عن شىء منه فليأكله حلالا طيبا ولهذا قال : (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً)

* * *

ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا * وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف فى الأموال التى جعلها الله للناس قياما أى تقوم بها معايشهم من التجارة وغيرها . .

ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء وهم أقسام فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص

العقل أو الدين وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها فإن الغرماء إذا سألوا الحاكم الحجر عليه فعل ذلك .

* * *

(وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) يقول ابن عباس : لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما فى أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم : (وقولوا لهم قولا معروفا) يعنى فى البر والصلة .

وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة من الإنفاق فى الكساوى والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق .

وقوله تعالى : (وابتلوا اليتامى) أى اختبروهم (حتى إذا بلغوا النكاح) وقال : الجمهور فى بلوغ النكاح إنه تارة يكون بالحلم إذ يرى الغلام فى منامه ما ينزل به الماء الدافق الذى يكون منه الولد . وفى سنن أبى داود عن على قال : حفظت من رسول الله ﷺ قال: « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبى حتى يحتلم أو يستكمل خمس عشرة سنة وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » وأخذوا ذلك من الحديث الثابت فى الصحيحين عن ابن عمر قال : عرضت على النبى ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزنى ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث أن هذا هو الفرق بين الصغير والكبير ، واختلفوا فى نبات الشعر الخشن حول الفرج وهى الشعرة هل يدل على بلوغ أم لا ؟ وذهبوا فى ذلك إلى ثلاثة أقوال : والغالب أنه يدل على البلوغ وقد دلت السنة على ذلك فقال الإمام أحمد عن عطية القرظى قال : عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فأمر من ينظر من أنبت فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلى سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلى سبيلى .

* * *

وروى أن غلاما ابتهر جارية . . . والابتهار أن يقول فعلت بها وهو كاذب — فقال عمر : أنظروا إليه فلم يوجد أنبت فدرأ ذلك عنه الحد .

* * *

وقوله عز وجل : (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) يعنى آنستم منهم

صلاحا فى دينهم واستعداداً لحفظ أموالهم وهكذا قال الفقهاء إذا بلغ الغلام مصلحا لدينه وماله انفك الحجر عنه . فيسلم إليه ماله الذى تحت يدوليه وقوله (ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافا وبدارا) أى مبادرة قبل بلوغهم ثم قال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) عنه ولا يأكل من هذا المال شيئا بل يعتبر هذا المال كما يقول الشعبى كالميتة والدم : (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف)

قالت عائشة : نزلت هذه الآية فى والى اليتيم الذى يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا أن يأكل منه وقال الفقهاء فى تقدير ما يأخذه أن يكون على أقل الأمرين أما أجرة مثله أوقدرحاجته. واختلفوا هل فى أمر والى اليتيم هل يرد هذا المال إذا أيسر؟ على قولين : (أحدهما) لا لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً . وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعى ، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل ، وقد روى أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال ليس لى مال وأقوم على يتيم له مال فقال : « كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالا ومن غير أن تقى مالك — أو كما قال — تفدى مالك بماله » .

* * *

وجاء إعرابى إلى ابن عباس فقال إن فى حجرى أيتاما وإن لهم إبلا ولى إبل ، وأنا أمنح من إبلى فقراء فماذا يحل من ألبانها ؟ فقال : إن كنت تبغى ضالتها وتهنا جرباها وتلوط حوضها وتسعى عليها فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك فى الحلب .

وبهذا القول السابق وهوعدم إعطاء البدل يقول عطاء بن رباح وعكرمة وإبراهيم النخعى وعطية العوفى والحسن البصرى .

« • »

(الرأى الثانى) إنه يرد ما أخذه من مال اليتيم إذا أيسر لأن مال اليتيم محظور وإنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم . إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت استقرضت فإذا أيسرت قضيت .

وقوله : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم) يعنى بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم : (فاشهدوا عليهم) وهذا أمر

من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه ثم قال : (وكفى بالله حسيبا) أى محاسبا وشاهدا ورقيبا على الأولياء فى حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم هل هى كاملة موفرة أو منقوصة منجوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ الله عالم بذلك كله ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم »

* * *

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۞ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۞ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا فأنزل الله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا . بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية . أو ولاء . فإنه لحمة كلحمة النسب

* * *

وقوله : (وإذا حضر القسمة) قيل المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث (واليتامى والمساكين) فليرضخ لهم من التركة نصيب وإن ذلك كان واجبا فى ابتداء الإسلام وقيل يستحب واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين فقال البخارى : هى محكمة وليست بمنسوخة ، وقيل هى واجبة على أهل الميراث ما طابت به نفوسهم .

قال بن سيرين ولى عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية فقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالى .

عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذا حضر القسمة أولو القربى) قال نسختها الآية التى بعدها (يوصيكم الله فى أولادكم) وقال عن الآية الأولى أن ذلك كان قبل أن تنزل الفرائض فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذى حق حقه فجعلت الصدقة فيما سمى المتوفى فألحق الله بكل ذى حق حقه وصارت الوصية من ماله يوصى بها لذوى قرابته حيث شاء

وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعه وأصحابهم .

والمعنى أنه إذا حضر الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين وكانوا موجودين حال قسمة مال جزيل فان أنفسهم تتوق إلى شىء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شىء يعطونه ، فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم أن يرضخ لهم شىء يكون صدقة عليهم وإحسانا اليهم وجبرا لكسرهم . قال تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) وذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المساكين وذوو الفاقة كما أخبر عن أصحاب الجنة (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أى بليل . وقال (فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) ﴿ (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فمن جحد حق الله عليه عاقبه فى أعز ما يملكه ، ولهذا جاء فى الحديث « ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته » أى أن منع الصدقة يكون محق ذلك المال بالكلية وقوله تعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم) الآيه . قال ابن عباس ان ذلك المعنى يقصد به الرجل يحضره الموت فيسمعه رجل يوصى بوصية تضر بورثته فأمر الله تعالى الذى يسمعه أن يتقى الله ويوفقه ويسدده للصواب . فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشى عليهم الضيعة .

* * *

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعوده قال يا رسول الله إنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثى مالى . قال « لا » قال : فالشطر : قال « لا » قال فالثلث قال « الثلث والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس »

* * *

قال الفقهاء إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفى فى وصيته الثلث وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث .

وفى سياق الآية التى نحن بصدد تفسيرها وهى (ولا يأكلوها إسرافا وبدارا) قيل أن المراد فليتقوا الله فى مباشرة أموال اليتامى .

وهو قول يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل هذه الأموال ظلما ،فكما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس فى ذراريهم إذا وليتهم ولهذا قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا)

« • »

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « اجتنبوا السبع الموبقات ـ قيل ـ : يارسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »

« • »

وعن أبى سعيد الخدرى : قلنا يارسول الله مارأيت ليلة أسرى بك ؟قال « انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير، وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف فى فى أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال،هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

* * *

وقال السدى : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعرفه كل من رآه بآكل مال اليتيم .

وعن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل يارسول الله من هم ؟ قال « ألم تر أن الله قال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية .

وفى حديث رواه أبى هريرة «أحرج مال الضعيفين المرأة واليتيم» أى أوصيكم باجتناب مالها ، وتقدم فى سورة البقرة عن ابن عباس: لما نزلت (إن الذين يأكلون أموال الناس ظلما) انطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه ، حتى إذا فاض طعام خاص بيتيم حجزه حتى يأكله اليتيم بذاته أو يفسد الطعام فلما اشتد ذلك عليهم ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .

يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما

هذه الآية الكريمة والتى بعدها والآية التى هى خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، وسنذكر من الأحاديث الواردة ما يعتبر تفسيراً لذلك ، أما تقرير المسائل ونقط الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة فموضعه كتب الأحكام والله المستعان .

وقد ورد الترغيب فى تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك وفى الحديث « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » .

* * *

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : أخبرنى ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة ماشيين فوجدنى النبى ﷺ لا أعقل شيئا فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ . . فنزلت : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين)

وكذا رواه مسلم والنسائى .

* * *

حديث آخر عن جابر فى سبب نزول هذه الآية

جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالها فلم

يدع لها مالا ، ولاينكحان إلا ولهما مال فقال : « يقضى الله فى ذلك » فنزلت هذه الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « اعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك »

* * *

وقوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) أى يأمركم بالعدل فيهم . فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الأناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعفى ما تأخذه الأنثى .

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها . حيث أوصى الوالدين بأولادهم فعلم أنه أرحم بهم كما جاء فى الحديث الصحيح وقد رأى امرأة من السبى فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبى أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك » قالوا : لا يارسول الله قال : « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها »

* * *

عن ابن عباس : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) أنه لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كره الناس ذلك وقالوا تعطى المرأة الربع أو الثمن ! ؟ وتعطى الإبنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولايحوز الغنيمة ، اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه ، أو نقول له فيغير فقالوا : يارسول الله تعطى الجارية نصف ماترك أبوها ؟ وليست تركب الفرس ، ولاتقاتل القوم ، ويعطى الصبى الميراث وليس يغنى شيئا ؟ — وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر .

وقوله تعالى : (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك)

وقد تقدم فى حديث جابر أن النبى ﷺ حكم لابنتى سعد بن الربيع بالثلثين (وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس) فالأبوان لهما فى الإرث أحوال .

(فإن كان له إخوة فلأمه السدس) والأم لا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك .

وقوله : (من بعد وصية يوصى بها أو دين) أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وروى أن على بن أبى طالب قال : إنكم تقرءون (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية .

وقوله : (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أى إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل فى أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر فى الجاهلية وعلى خلاف ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس : إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوى أو الأخروى أو هما من أبيه مالا يأتيه من ابنه وقد يكون العكس ، ولذا قال : (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أى أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر فلهذا فرضنا لهذا ولهذا ، وساوينا بين القسمين فى أصل الميراث والله أعلم .

وقوله : (فريضة من الله) أى هذا الذى ذكرنا من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه والله عليم حكيم يضع الأشياء فى محالها ويعطى كلا ما يستحقه بحسبه ولهذا قال : (إن الله كان عليما حكيما) .

« ٥ »

ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما

تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين ، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث .

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال : (ولهن الربع مما تركتم) إلى آخره وسواء فى الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه وقوله : (من بعد وصية) الخ سبق الكلام عنه .

وقوله تعالى (وإن كان رجلا يورث كلالة) الكلالة مشتقة من الإكليل وهو الذى يحيط الرأس من جوانبه ، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه كما روى الشعبى عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيى فإذا يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد ، فلما ولى عمر قال : إنى لاستحى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه .

وهذا التفسير صح عن كثيرين أيضا وأخذوا به .

وقوله تعالى (وله أخ أو أخت) أى من أم كما هو فى قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبى وقاص وكذا فسرها أبو بكر الصديق (فلكل واحد منهما السدس فإن كانو أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهى الأم (والثانى) أن ذكورهم وإناثهم فى الميراث سواء (والثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن (الرابع) أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم .

وعن الزهرى قال . قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى قال الزهرى ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ وهذه الآية هى التى قال الله تعالى فيها (فإن كانو أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) .

* * *

واختلف العلماء فى المسئلة المشركةوهى زوج وأم أو جده واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور للزوج النصف،وللام أوالجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيهاولدالأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو اخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسئلة فى زمان أمير المؤمنين عمر :

* * *

وقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) أى لتكن الوصية على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على مافرض الله له . من الفريضة ، فمن سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمه وشرعه ، ولهذا جاء فى الحديث « الأضرار فى الوصية من الكبائر » .

ولهذا اختلف الأئمة فى الأقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؟ وذهبوا فى ذلك مذهبين (أولها) لايصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

وذهب الشافعى فى الجديد إلى أنه يصح الأقرار للوارث أى الوصية له .

* * *

فمتى كان الإقرار صحيحا مطابقا لما فى نفس الأمر جرى فيه الخلاف السابق ومتى كان هذا الاقرار لأحد الورثة حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالاجماع وبنص هذه الآية الكريمة (غير مضار وصية من الله ، والله عليم حليم)

انتهى الكتاب الخامس من تفسير الإمام ابن كثير ويليه الكتاب السادس بإذن الله وأوله تفسير قوله تعالى (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ۞ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالدا فيها وله عذاب مهين)

الواجب على كل مسلم الكشف عن معانى كتاب الله . وتفسيره وطلب ذلك التفسير من مكانه وتعلمه وتعليمه للأهل والولد وذكر ذلك فى مجالسنا ومجتمعاتنا . فالعلم الصادق هو علم القرآن .

وتعلم التفسير من أوجب الواجبات . وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا لاعراضهم عن كتاب الله .

وأحسن طرق التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن نفسه . فإن ما أجمل فى مكان قد بسط فى مكان آخر ثم الاستعانة بعد ذلك بالسنة النبوية التى هى تطبيق عملى للقرآن. وقد يحتج أكثرنا بأن التفاسير متشعبة منها مايعنى بالنحو أو الصرف أو شغل الصفحات الكبار بتسلسل أسماء الرواة وأن مشاغل الناس فى أيامهم هذه واضطرابهم فى أسباب معاشهم كثيرة لاتتسع لأكثر الناس فى ذلك .

لهذا رأينا - بتوفيق الله - أن نقدم فى أجزاء متتالية خلاصة وافية مركزة معروضة عرضا سهلا شيقا مبوبا لتفسير شيخ الإسلام الإمام ابن كثير وهو أوفى التفاسير فى هذه المقاصد ويمتاز بأنه يفسر القرآن بالآيات الأخرى من القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة مع ذكر الظروف والمناسبات لنزول الآيات ويمكن طلب الأجزاء الأربعة السابقة من دار الطباعة المصرية الحديثة ١ درب العنبة بشارع محمد على بمصر وسيصدر الكتاب السادس قريبا بإذن الله وهو سبحانه المستعان ؟